التربية الاجتماعية (١)

اخواني الاعزاء

لابد انكم قرأتم اموراً كثيرة عن ذات الفيلسوف الانكليزي الشهير داروين . اصطدمت تجربة هذا العالم الطبيعي صاحب الفكر الثاقب والنظر النافذ بحادثة حيوانية مثلت امامه ايما حل وحيرته ايما حيرة ، حادثة عامة وجدها تتناول جميع ما يدخل تحت عنوان الحياة قوياً كان ام ضعيفاً تلك الحادثة هي ما نسميها في التنازع على البقاء او بتعبير اخص من هذا ان لمحافظة حياته وجب عليه ان يتهيأ لرد طوارق الحدثان التي لابد من ان يصطدم بها في كل آن

جعلت نظره هذه الحادثة العامة الشديدة من ساعته يبحث عن دواعي ذلك النزاع والاسباب التي تؤدي لغلوبة بعضهم والتفوق واضمحلال الآخرين والتقهقر . فمن جملة الاسباب التي وجدها ، الصبر على شدائد الطبيعة ، والتفوق من جهة الاقتدار المادي والمعنوي ، وتزايد النسل عند فريق اكثر من الآخر ، غير انه لم يقف عند هذا الحد بل واصل البحث والتنقيب حتى ظهر له بان نتيجة هذا النزاع القائم بين العناصر الحية هو بقاء الانسب في العالم ، وان السيادة هي للغالب الاقوى ان الترقي في البقاء اولي العزم والقدرة ووجد في توالي الايام ان الضعيف محكوم عليه والقوي حاكم ، او بعبارة اقرب الى الحقيقة : الضعيف يموت والقوي يسود .

وهذه حقيقة قد ايدها علماء كثيرون قبل داروين ومن جملتهم الفيلسوف العربي الشهير ابن رشد فانه قال : « ليس للضعيف في مدى الازمان الا حالان ، اما ان يموت مذلولاً واما ان يتصل بالقوي منه فيكتسب صفاته » وبذلك يقوى ويسهل عليه الواقع في معامع الحياة . الشكر لداروين ايها الاخوان لانه كشف

---

(١) محاضرة القاها محمد افندي حيدر من توابع سورية المتخرجين من كليتي الاستانة وبيروت في المنتدى الادبي في عاصمة السلطنة يوم ٢٢ كانون الاول ١٩١٢

بآيات عاد كرنابل تخرج من القانون العمومي ، قانون بقاء الانسب ، واشهر بنظريته المشهورة التي طالما تجاذبتها العقول وتشاحذت بها القرائح والاذهان وهي : الارتقاء في العالم .

سردت لكم ايها الاخوان هذه العبارات ، لا لانني اريد شرح نظرية ذلك العالم المدقق ، ولو اردت ذلك حقيقة لاضحككم حالي لعلمكم ان الوقت ضيق جداً وان شرح تلك النظرية يتوقف على معرفة مسائل جمة لاتدخل في موضوعنا كما اني لست بقادر الى اتيانها ، وانما اردت ان اذكركم والذكرى تنفع ، ان الحياة ليست كما يتوهمها كثير منا . فالطفل لدى خروجه من حجر امه ، يقع في ارتباك ظاهر لما يتهاجم عليه من العوارض الكثيرة : فلمس يد تؤذيه ولمسة قد تؤلمه . ثم هو ينمو بين حرص الطبيعة وصعوبة المعيشة وكلما تقدم في السن كثرت احتياجاته وتراكمت عليه المشاكل وتضاعفت على جانبيه الرغبات حتى اذا ما اراد شيئاً وجد الوفاً من الموانع تزاحمه .

فهذه المنافسة او بالاحرى هذا النزاع والتزاحم يتجلى بكل معناه وشدته عند ما يخرج الانسان من المدرسة اذ يكون حينئذ قد قبض على زمام ارادته وافلت من الحماية العائلية فيدخل اذ ذاك في حياة جديدة يطلب الرغيف والزاد متكلاً على قوة ساعديه وقيمة كسبه فالوسط الذي يلجه يجد فيه اناساً كثيرين يزاحمونه على مرغوبه ويحولون بينه وبين مطلوبه . وهناك الطامة الكبرى اذا لم يكن قادراً على دفع المشكلات وازالة العثرات .

فحالة الامم خصوصاً في وقتنا هذا لاتختلف عن حالة الافراد ان لم تكن اشد وطأة واعظم خطراً . فالامة التي لاتنظر الى حقائق الامور بعين الاعتبار وتهمل نفسها بمجاراة مجاوريها في سبيل الرقي الادبي والمادي تمسي ولا شك متدهورة في هاوية الدمار من حيث لاتشعر عثار الامر وهو اشأم اصناف الانتحار واقتله .

لهذا انه يجب على كل امة ان تنظر الى عواقب الامور وتسعى بكل جهدها وطاقتها وتستعمل جميع الوسائط لترقية ابنائها لا لترقيتهم بصورة مطلقة اذ ان ذلك لايكفي بل لايصالهم الى درجة يقتدرون بها ، بواسطة التعاون والتضامن بينهم ، على الاحتفاظ بحريتهم وتحصينهم لاحترامهم . انكم تعلمون ايضاً ان بعض الامم في حالة من الرقي تختلف درجاته غير ان الرقي الذي اقصده هو الرقي الحسي ولا يجهل احد

منكم ان فرنسا تجتهد كل الاجتهاد لتزيد نفوسها ويحق لها ان تضطرب كل الاضطراب في الوقت الحاضر · اوربا ترى نفوسها تزداد مائة وثلاثة آلاف في خمس سنين اي من تاريخ ١٩٠٥ الى ١٩٠٩ والمانيا قد ازدادت في الوقت نفسه ما يربو على الاربعة ملايين ومائتين وسبعة واربعين الفاً في حين ان انكلترا وعدد سكانها ٣٦ مليوناً معدا نفوس ايرلاندا واسكوتلاندا قد ازدادت سنة ١٩٠٩ فقط بما يقدر باربعمائة وثلاثة عشر الفاً فالزيادة القليلة التي وقعت في فرنسا في هذه المدة هي سبب ضعفها لعدم كفايته بالنسبة لمجاوريها فهذه الزيادة العظيمة في المانيا تدعوها ان تزيد عسكرها الى ٧٠٠ الف مقاتل في وقت السلم وان تتداخل في مسائل الجزائر وغيرها مضطرة للاستعمار وتحتل اصقاعاً جديدة لاهليها وقت الشدة

ذكرت لكم هذا المثل لالفت انظاركم الى انّا في ضيق وان الوقت حرج جداً ومن ضيع الفرصة لا ينفعه ان يعض اصابعه ويندم حيث لا ينفعه الندم · فيكتفي بمدح ماضيه ويعقد يديه امام المستقبل · فمن احب وطنه وعشقه حقيقة وجب عليه قبل كل شيء ان يصلح نفسه ويربيها بالعلوم العصرية ثم يفكر بان هناك امة لها عليه حقوق عديدة منها حق بقائه فيجتهد اذ ذاك للقيام بواجبه نحوها وايصالها الى درجة الرقي والاسعاد ، درجة تمنحها حق البقاء بين الامم الحية

اخواني ، لا تظنوا انني اعرض بالذين يفتخرون بماضيهم لاني اعتقد ان الانسان لا يمكنه ان يتسلق سلم المعالي الا اذا عرف نفسه ، ومعرفة النفس لا تتم الا بمعرفة الآباء والاجداد وما تركوا من الآثار · لان الانسان ليس له ان [illegible] امسه وان هناك سلسلة تربطه شاء ام ابى بالماضي · وما اصدق مقالة الفيلسوف الشهير بان « الامة مؤلفة من امواتها اكثر من احيائها » فمن اراد خدمة امته كان جديراً بان يبحث عن ماضيها ويدرس تاريخها ويكشف التراب عن تلك الجذور التي تسنده في حياته دون الارتباط يستعين بها خدمة مبدإه وتعزيز غايته ، غير انني قصدت بقولي اذ ذاك من يتحمس مفاخراً بقوميته مع انه يجهل اصلها وفروعها يجهل رجالها وآثارها ، قصدت بقولي من يصرخ دائماً : امتي العربية كانت صاحبة علم ومجد صاحبة مدنية عظيمة واوربا مدينة لمدنية العربية الخ · · · · وكلما جلس مجلساً سمعها من رفيقه ولكنه يرددها في كل محفل ومجلس دون ان يفكر بان الالفاظ لا قيمة لها اذا لم تستند الى دلائل علمية وادلة حية

من احب امته فليبحث عن احوالها وآثارها وليجتهد في تتبع ما هو موافق من المدنية الغربية فيها . نحن العرب ، يقال عنا اننا اذكياء ؛ فوصفنا بهذه الصفة اليس بجدير بنا ان نفهم الآن اننا في القرن العشرين ، قرن الجهاد المتمادي والسعي المتوالي وان الذكاء وحده لا يكفل للانسان حياته اذا لم يأخذ بالاسباب بارادة اشد من الحديد . نعم ان هذه الصفات صعبة المنال ولكنه يجب عَلَى الانسان امام المصاعب ان لا يقنط ان الامة التي لا تعتمد عَلَى حالها وليس لها ثقة بافرادها تكون قد اساءت الظن بنفسها ومن اساء الظن بنفسه تدرج الى اليأس وهناك الطامة الكبرى اذ ليس بنتيجة اليأس الا الفتور والخمول .

فحينئذ يجب عَلَى كل امة ان تنتبه كالافراد لشخصيتها وتتأهب الى يوم معلوم . يوم لا بد ان تختلط مع غيرها فيه فاذا كانت خبيرة متيقظة في امورها حازت قصب السباق والا وقعت كما هي حالتنا الآن في هوة الذل والهوان

تذكرون ولا ريب قول ذاك الحكيم الاجتماعي مونتسكيو بحق القوة : « القوة تجري الى ان تصادف مانعاً فيصدها » فهذا القول ينطبق عَلَى جميع الادوات طبيعية كانت ام اجتماعية . اليست مشكلات اوربا السياسية وتجمعها حول الاتفاق والائتلاف مستندة عَلَى هذه النظرية اوليس ضعفنا وتشتت شملنا هو الذي اطمع الحكومات البلقانية ان تزحف علينا بقواتها وترغب في ابتلاعنا . التساهل بالامور وحسن النية والاتكال عَلَى الغير امور لذيذة . لانها سهلة التناول ولكن وبالاسف اننا نرى السياسة متلونة كلون الحرباء لا ثقة بها مطلقاً . وما التساهل وحسن النية بالامور الا بلاهة ومسكنة .

كنت اظن اننا قد اعتبرنا بما قد اتى على رؤوسنا من الدروس التي اوشكت ان تقضي علينا تماماً ؛ كنت اظن انه لم يبق احد في المملكة العثمانية الا وقد اعتبر بما قد انتهت اليه سياستنا العنصرية التي بعثرت قوانا وكادت تفرق فلذاتنا بعضها عن بعض ولكني وجدت وبالاسف — بالرغم عما كنت آمل — منشئاً يكتب الاسطر الآتية في جريدة تنشر في العاصمة : « العناصر المختلفة التي تعيش في السلطنة العثمانية لا يمكنها ان يكون لها قوة بالغة بجانب العنصر التركي . منذ خمسة عصور ونحن عائشون تحت عنوان العثماني ، ففي القرن العشرين ينبغي ان نعيش تحت عنوان الترك ؟ »

لم اذكر لكم معشر الشبان الكرام هذه الامثلة الا على سبيل الاستطراد وليس جديراً بالانسان ان يسيء الظن ، لان التسامح والتعاضد ضروريان خصوصاً في الهيئات الاجتماعية — مع انه ينبغي علينا الا نحسن الظن بمن لا نعتقد وان ننظر الى المستقبل بعين الدقة خصوصاً اذا كانت حياة امة في موضع البحث وان يعتمد على نفسه واجتهاده وعند الحاجة يكون متشدداً في العمل بوصية الشاعر :

واذا بليت بظالم كن ظالماً * واذا لقيت ذوي العدالة فاعدل

حوالي الكرام ؛

اريد الآن ان اتكلم عن الحرية الاجتماعية الا انها مرتبطة بما نحتاج اليه الحرية الديموقراطية · والذي دعاني لتخصيص البحث في هذا الموضوع ظاهر على ما اظن · لان هذا النوع من الحرية هو الذي يشمل اكثر الفكر بين تناوله جميع الافراد وله في وقتنا الحالي مكانة عظمى عند الامم الراقية

ان الوقت الذي كانت تسعد به الامم تحت رعاية رجل ذي دهاء يتولى امورها قد قضى وسيدفن عن قريب بين صفحات التاريخ وان الدور الذي كان الامر فيه بيد شخص واحد يتصرف كيف يشاء قد مضى وانقضى وها نحن الآن في زمن ، الضمير العمومي ولكل امرء حقوق يطالب بها ووظائف يدعى الى القيام عليها ، يشترك برأيه في مهام الامور ويضع اسمه في كل مسألة تتعلق بحياة الامة وارتقائها فمن ثم يجب عليه ان يكون قادراً على تمييز الغث من السمين ليفيد الهيئة الاجتماعية التي ينتمي اليها بنفسه وماله · هذه المسألة من اهم المسائل الاجتماعية التي شغلت الامم الغربية حتى قدرها وهي تشتغل ليلاً ونهاراً بتطبيقها ، بنشر العلم وتعميم المساعدة بين جميع ابنائها حتى يكون كل فرد مفيداً لامته برأيه وسعيه وقلمه وماله ·

ان من الافراد من يعلقون آمالهم وترقية الشعوب على حياة شخص واحد · ان الامة التي لا يمكنها ان تكون بغير الرجال والتي تعلق شقاءها وسعادتها على شخص واحد ليس لها حق ان تدخل في مصاف الامم الحية · الامة الحية هي من اذا فقدت بالموت ابطالها يكون خلفهم ومن اذا احتاجت يكون شبانها عدة غلادستون ثم شمبرلين ، فبسمارك ، فشنيور ماكنزي من الرجال العظام · والامة الحية هي التي تعد امثال هؤلاء الرجال ولا يهمها اذا سقط واحد فان هناك جماً غفيراً قادراً على ان يخلفه · فالروح الاساسية التي تأتي بالاعمال العالية هي روح الامة من حيث

الخضوع ولا تظنن ان بسمارك كان يمكنه ان يفعل ما فعل و يوحد العنصر الجرماني تحت سيطرة واحدة لو لم يكن مستنداً على امة غذاؤها العلم والانتظام اعني بهما التربية المدرسية والروح العسكرية ولا تظنن ان تيير الفرنسوي كان يستطيع دفع الجزية المليارات ويخلص وطنه بمدة وجيزة لو لم يكن وراءه امة تعودت الاقتصاد وتأصلت فيها مزايا الاستثمار .

فحري بنا نحن ابناء العرب ان نقتفي اذا اردنا لنفسنا حياة حرة أثر تلك الامم وان نبث روح التربية الديموقراطية بكل صقع من انحاء جزيرة العرب وسورية

ان الاختصاصيين في هذا الفن قد عرفوا التربية بصور عديدة فقد قال الفيلسوف الالماني (كانت) التربية تنمية الصفات الكمالية في الانسان بقدر ما تستطيع طبيعته او بقدر ما يتحمل استعداده . وتقول مادام نكور دوسوسور وهي آنسة اشتهرت بهذا الفن : « تربية الطفل ، هو ايصاله حالة يقدر بها ان يفي وظائفه الحيوية بأحسن صورة » ويرى هربرت سبنسر ان التربية هي احضار الطفل للحياة الكاملة ؛ وعرفها جيمس ميل الفيلسوف الاميركاني هكذا : « المقصد من التربية جعل الطفل آلة سعادة لنفسه ولغيره »

و يصدق ان جميع ما ذكرناه من التعاريف في التربية يتعلق بغايتها لا بذاتها ولا يخلو احدها من الابهام . لانه اذا سئلنا ماهي الحياة الكاملة وما هي السعادة يصعب علينا ان نجاوب جواباً شافياً لأن هذه الكلمات تدل على اشياء نسبية لا يمكن حصرها ثم فهمها . عرف جان جاك روسو التربية بذاتها فقال « التربية هي صنعة تربية الاطفال واعداد الرجال » يحسن هذا التعريف هو انه قصير ومختصر غير ان قصره المفرط ولد فيه نوعاً من الابهام .

ولذا نرجح التعريف الاتي وان كان مطولاً غير انه يدل على المقصود ويؤلف بين التعاريف التي ذكرناها . التربية هي مجموع الاعمال المكررة لمعاونة طبيعة الانسان في ترقية خصائصه الجسمية والعقلية والاخلاقية ، بقصد تكامله واسعاده وابقاء وظيفته الاجتماعية . بهذا التعريف يجلو للانظار ان التربية ينبغي لها ان تنطبق على الصفات الثلاث التي تضمها بعضاً الى بعض في الانسان وهي الصفة الجسمية والفكرية والأخلاقية .

استأذنكم ان اتبع كلمتي في التربية الديموقراطية بالتعمق بالمعلومات الاساسية والصفات الفكرية والارادية التي يجب ان تؤسس في نفس الطفل من حيث انه عضو فعال وان يكون بحثي بصورة خاصة في الولد الذي دخل مدرسة لتكميل علمه لاجل ذلك خصصت بحثي بالتربية وتركت تربية الاسرة والتربية اللامدرسية (اذا صح التعبير) اي التربية الذاتية بعد الخروج من المدرسة · ولي بذلك مأرب يهم حياتنا العربية ·

لا بد انكم اطلعتم على بعض المقالات التي نشرت في المدة الاخيرة في بعض الجرائد بدمشق تحت هذا العنوان المبادىء العالية فتناولت المقالات على اثر المقالة الاولى حتى ظن انه يوجد اختلاف بين آراء الكتاب في هذا الشأن ولكن الخلاف لم يكن الا اختلافاً وهمياً لمن ادعى انه لا اصلاح الا باصلاح الاسرة فقد نطق بالصواب لان العائلة في التحقيق هي اساس كل جمعية وقوامها · على انه اذا سئل كيف تصلح الاسرة ، فماذا يكون اذاً الجواب ؟

أيتمكن الابوان ان يتعهدا تربية ابنهما او بنتهما اذا لا يفقهان ماهي التربية وما مقاصدها ؟ وهل يكفي ان يلقن الآباء والامهات معنى التربية بواسطة المحاضرات والمؤلفات والجرائد وهل هم يحسنون القراءة واذا قرأوا وتوصلوا لفهم معنى التربية هل يتمكنون من تطبيقها وهل يمكننا ان نغير طباعهم وعاداتهم بعد ان وصلوا الى تلك السن ونعلمهم الثبات والدوام في العمل لاجل ان يجنوا ثم قطاف الثمرات ام يمكننا ان ندخل البيوت ونأخذ نحن تربية الاطفال · كل هذا وهم باطل لذا فلنوجه انظارنا الى المدارس لان هناك آمالنا وهناك مستقبلنا هناك يمكننا ان نؤثر في الطفل ونغرس فيه قدر الامكان بعض الطبائع الحسنة ونعلمه الثبات والنشاط انني لا انكر ما للمؤلفات والمحاضرات من الخدم العظيمة بهذا الشأن كما انني اعتقد ان تلك الخدم بالرغم من مكانتها ثانوية بالنسبة لتربية امة كأمتنا ·

ذلك ان المكتب هو الذي يجب ان يكون المبدأ لتربيتنا : لان الولد الذي يتيسر له نيل تربية حقيقية في المدرسة يمكنه ان يؤثر في اصلاح اسرته وان يكون عوناً لاسعاد اولاده وترقية امته في المستقبل · ولكن من لنا أن يربي تلك التربية التي اشرنا اليها في مدارسنا · اولئك الرجال الذين يعلمون فيها الآن ؟ فمهلاً مهلاً واسمحوا لي بأن اهتف الى الغرب القريب ·

لنرجع الى موضوعنا اي الى كيفية المعلومات الاساسية والصفات التي تتعلق بالفكر والارادة والتي يجب على المعلم ان يلقنها تلميذه بصفة عضو من اعضاء هيئة اجتماعية ديموقراطية ولنبدأ بالتربية العقلية لان التربية الجسمية المدرسية وضررها معلوم عند الجميع ·

قلت نبدأ بالتربية الفكرية لان الطبيعة الاخلاقية في الرجل وان كانت هي التي تعطيه القوة اللازمة لاقتحام المصاعب غير ان الذكاء هو الذي ينير طريقها ويعين لها وظيفتها

وعليه فالتربية يجب ان يكون اساسها العلم وان تستند في جميع اوقاتها على مكتشفاته واصوله الثابتة · لاننا في قرن الحقائق العلمية والخرافات الناشئة عن الجهل ، التي تدرس في مدارسنا بدون ان يشعر بها المعلم هي لاتليق بعصر كان للخرافات والتحريفات فيه حظ ومجال · فالعقل البشري في عصرنا هذا خاصة لا يطأطئ بسهولة امام البداهة العلمية

ولكن ماذا يفهم من قولنا بأن العلم يجب ان يكون روح التربية الفكرية في مجتمع ديمقراطي ؟

هل يمكننا ان نطالب من الخلق بان يملكوا كلهم فنون العلم بحذافيرها ويشتغلوا بها · كلا ! فان ذلك لا يدخل تحت دائرة الامكان · وحيث ان الجمعية مركبة من اعضاء مختلفين في استعداداتهم وطبائعهم فقسم منهم بطبيعة الحال يبرع مثلاً بالعلوم الاجتماعية وآخر بالعلوم الرياضية وآخر بالتجارة والصنائع والزراعة ... الخ .. وان كل منهم ان يكون عاملاً في صنعة آمراً كان او مأموراً وما العالم الا من اختص في شعبة من شعب الفنون الحاضرة فعليه ليس المقصد ، كما قال رنان ، ان يكون كل الافراد علماء بل المقصد ان يشترك الكل بثمرات العلم او بعبارة اجمل كما قال توسيديد ليس المقصد ان يكون كل فرد قادراً على حل كل معادلة بل يكفي ان يقتدر على ادراك النتيجة من حلها

فعليه ماذا يترتب لاستعمال هذه النتيجة العامة التي يجب ان تشمل الجميع بدون استثناء ؟ او بعبارة اخص واوضح ما هي الامور الضرورية التي يلزم نشرها بين جميع ابناء العرب تلك الامور ثلاثة · اولاً نشر الحد الاصغر من المعارف الاساسية بين جميع ابناء الناطقين بالضاد ثانياً تأسيس عادات فكرية حسنة

ثانياً نشر بعض المعلومات العامة التي تتعلق بالمكتشفات الحية

الحد الاصغر الذي يجب نشره من المعارف لا يمكن تحديده بصورة قطعية ؛ لانه يتبع تغير الاحوال والاستعدادات فمنهم من يتقدمون ومنهم من يتأخرون غير ان القاعدة العامة هي ان يبدأ بنشر المعلومات الابتدائية التي هي بمثابة الآلات الضرورية القوية للفكر في المستقبل كالقراءة والكتابة وبعض قواعد اللسان العربي والحساب بإضافة بعض المعلومات التي تتعلق بالتاريخ وجغرافية الانسان او الامم لمعرفة الماضي والحال والتأثير في المستقبل . فاذا تمت هذه المعلومات الابتدائية بصورة مختصرة ومتوالية وامتدت للمدارس التي الأخص تمكن الرجل من التوسع بمعارفه فيما بعد بدرس المؤلفات وسماع المحاضرات جيداً بالحضور في احدى المدارس العليا وما يساعده الحظ في اتمام تحصيل العلم .

غير ان الغرض الاساسي من تلقين هذه المعلومات الابتدائية هو ان يصير تأسيس عادات وطبائع فكرية حسنة بحيث يكون الرجل صاحب فكر منظم في جميع اعماله وتحركاته وان يتعود فهم الحقائق بدون ان ينخدع بالظواهر وان يرى ، كما قال السيد الفرد كروازى — مدير كلية العلوم الادبية بباريس — ما من وراء الكلمات المعاني ، ومن وراء المعاني ، الاشياء بذاتها . المقصد من المعرفة ان يستطيع الانسان فهم الحقائق والحكم على الاشياء لا يتيسر الا بالاطلاع على كنهها ومعرفة القوانين التي تديرها .

ملازمة الفكر تقتضي تفرد النظر وشدة الثبات لنيل المقصد والذي يجب ان يولد عند الطفل الميل لمعرفة الحقائق لاجل ان يستفيدها ، يجب كما يقول ديكارت الفيلسوف ، ان تميل للاشياء بدلا من ان تخدعها بصورتها الخيالية . الطبيعة لا تقابل بغضب على الحمق وجهالة ، لان الغضب وسواه عندها سواء . وما اذا بانرى ، تقع كزركس عندما اخذ السوط بيده وجلد به البحر ليؤدبه على هيجانه امامه .

فعليه يجب علينا ان نعود الطفل النظر في الاشياء بعين البصيرة والتروي وان نولد عنده طبيعة البحث عن حقائق الامور والمثابرة في العمل لنيل مقصده .

ثالثاً ان المثابرة على العمل والبحث ضروريان لكل شخص اذا اراد ان يتمم تربيته حياته وبالاسف ... الشرق واخص ابناء العرب ينقصها هذه الفضيلة الاجتماعية ؟ لان لذة التحصيل ومعنى الحياة لم تمازج ارواحنا . فلنخرج منا

من احدى المدارس العالية يعد نفسه انه وصل الى منتهى الكمال في العلم ؟ فيعقد يديه و يتمدد في سريره كأنه بلغ الغاية القصوى . هذه حالتنا الآن وهذه حالتنا من زمن ليس بقريب . درس كلوت بك احد المستشرقين اخلاق العرب على عهد محمد علي باشا الكبير في مصر وسورية فامتدح منهم واعجب بذكائهم وسرعة انتقالهم وقال انهم لا يقصرون عن ابناء الغرب شيئاً غير انهم يملون بسرعة ولا يداومون العمل بصورة جدية

بهذه الخصلة ايها الاخوان ، من اخص النقائص الاجتماعية في زمننا هذا ولقد ثبت ان الالمان لم ينجحوا و يبرزوا اكثر الامم الا لأن هذه الصفة قد امتزجت بطباعهم وقبضوا عليها اكثر من غيرهم . فيمكننا نحن العرب ، والامثال عديدة احتذاء مثال الناهضين بأن نعطي للحياة حقها ونتخلق بهذه الصفة الضرورية لنا اذا اردنا ان نخدم انفسنا ونقوم بامتنا

بقي علي ان اقول كلمة في القسم الثالث الا وهي الافكار العامة التي يجب ان تلقن للطفل في صغره . اول شيء يمكننا ان نعلمه للطفل ان يعرف شخصه ومن هو والى اي اسرة ينتمي ، وبأي لسان امة ينطق ومن هي تلك الامة التي يرتبط بها بعاداته وطباعه ثم ننتقل به الى الامم الاخرى بحيث تدخل في ذهنه النقطة الاساسية وهي الفرق بين الماضي والحاضر فنعطيه بذلك فكرة عامة عن فكرة الرقي السائر في العالم . يلزم ان يعرف ان العالم لا يتبع الاهواء والا هو في تقلباته ودورانه بل هناك نظام وقوانين يسير بها ويخضع لها لا بد انكم توهمتم بعض هذه التعابير التي ذكرتها كالرقي السائر والنظام في العالم ، وسألتم انفسكم كيف يمكن للصبي وهو حديث السن فهم هذه الحقائق العالية ولربما ضحك بعضكم في سره من هذا الفكر

نعم ليس القصد ان يدخل المعلم في تفاصيل هذه المسائل لانه يستحيل عليه افهامها كلها للطفل ولكن يمكنه ابداً ان يوضح ما اشرنا اليه بأن الخطوط الاولى فقط المدونة في التواريخ والكتب الاجتماعية . وفي وجه الاستدلال اريد ان انقل لكم عبارة للمؤرخ العالم الكبير المسيو لافيس احد اعضاء المجمع العلمي بباريز قال : « ان التقلبات التي اتت على الانسانية مرئية محسوسة ولا حاجة للانسان ان يكون عالماً متبحراً او فيلسوفاً كبيراً ليتمكن من الوقوف على سير الروح البشرية التي تقلبت بين الاعصر الغابرة ليكشف المعلم بتغيير شروط الحياة بين الادوار المهمة فقط وليقل

مثلاً ان الانجيل يفرق ما بين كيف يستر لاشيل والهيرودسيين والحروب الصليبية وبين النبيل والسيد والصليب بين افلاطون وباسكال وبين العروق الاسبانية من القسسين فعندها يحس الولد من نفسه انه متاد بتاريخ الانسانية على الدوام . وفي الوقت نفسه يتوقد معلم التاريخ من الجمعيات الابتدائية الى ان يصل الى الجمعيات الحاضرة بشرط ان يوقفه على الاصول ويهمل ما دون ذلك من الفروع .

وبديهي انه لا يمكن استحصال هذه الشروط ولا يتيسر توسيع الفكرة وانارة الذهن اذا لم يكن هناك حرية فكرية مطلقة . فالحرية هي غذاء الفكر وقوامه وبدونها يصبح الفكر كالعضو المعطل عن الحركة فهو ان يبقى مدة من الزمن ينحصر ثم يعجز عن الاتيان بعمل ولعل لعب اذا ذكر لكم هذه الامثولة الشارحة لهذا الشأن .

دخلت الدوقة دورليان ذات يوم سنة ١٨٤٢ ومعها الطفل على فيكتور هوجو وسألته ماذا يجب ان تعلم ولدها فقال لها : يجب ان تعلميه ان فرنسا تحب العالم باسره وان الملكة نفسها . واذا كان القصد من هذا الجواب يا ترى ؟ القصد هو انه اذا ساعد الحظ ابنها الصغير ذي الرتبة وجلس على سرير السلطنة بعد والده لويس فيليب ، يعرف ان الفكر حاكم على كل شيء وان مراعاته واجبة حتى على الملوك فالحقيقة لا يقف شيء امام الانسان اذا كان متصفاً مستقلاً في حرية الفكر وقوة الارادة .

وها انذا اختم حديثي بكلمات عن التربية الاخلاقية الاجتماعية فاقول : تموثون ولا بد ان قسماً من الاخلاق قد تكوّن في مدى الازمان وسير الايام بصورة قطعية فالمذاهب والاديان الغالية كلها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مثل : يلزم عليك ان تطيع والديك وتعين جارك وتحافظ على حرمتك وتصبر في الاحن والآلام وتعيش في السعادة باكتساب الفضائل فهذه الاحكام هي احكام ثابتة تتعلق بغايات عالية ومقاصد شريفة . غير ان هنالك صفات أخرى من الاخلاق بالنسبة الى التشكلات الاجتماعية الحاضرة يجب ان تضاف الى القسم الاول وان ترسخ في عقول الاطفال وهذه الصفات تدعى بالاخلاق المدنية ولا بد ان احصيها لكم الآن .

القصد من الاخلاق المدنية مزدوج فمن جهة هو توليد فكر الاستقلال

الشخصي في الطفل وجعله قادراً على ان يأتي بالاعمال شخصية مثمرة ، ومن الجهة الاخرى [illegible] حسن التأليف بين الاعمال واستقلال الارادة وسوقها الى هدف معين . فالمراد من الاول هو الشخصي ومن الثاني الجمعية . فالاول يقوي الفرد على السعي والعمل والثاني يحمله على اشراك مساعيه مع غيره للتوصل بذلك لتأمين منفعة الشخص ومنفعة الهيئة الاجتماعية معاً . ولا شك انه يتيسر للامة رقيها ونجاحها اذا كان الافراد اقوياء مندمجين في فكر التعاون والتضامن .

الرجل القوي صاحب الاستقلال الشخصي والجرأة المدنية هو الذي مذهب مترابط ، من تغلب العقل فيه على الاميال والذي اذا تحقق لديه عمل نافع وغاية شريفة مشى نحوها بقدم ثابتة دون ان يبالي بكثرة الموانع وازدحام المهالك .

المستر روزفلت ، رئيس جمهورية اميركا الشمالية سابقاً ، هو مثال مجسم في هذا الشأن ومن درس حياته ومناقشاته الاجتماعية الى الآن يدرك انه هو ذاك الرجل الذي يقول في كتابه (الحياة المتينة) : الامة لا يمكنها النجاح اذا لم تعود الا الدعة بدل الجهد . لا لاجتناب المصاعب ، بل لتحملها ، ولا البحث عن الراحة الشاملة ، بل عن معرفة احراز الظفر من ايدي المشاكل والمخاطر . يجب على الرجل ان يفرح اذا اقتحم عمل الرجال و يسر اذا جرأ على تحمل الصعوبات و يكد و يجد ويحافظ على نفسه وعلى من يلوذ به ، يجب على المرأة ان تكون مدبرة لبيتها ، رفيقة لزوجها ، عاقلة لا تجزع من كثرة الاولاد الاقوياء الاشداء حولها . ورجاؤنا الى ابناء العلم والتعليم على الاقل ان يبذلوا الجهد في سبيل انشاء هذه الصفات العالية بين الناشئة الجديدة ومن يليها

ويمكن ان تكون الافراد اقوياء اذا لم تتمكن في افئدتهم حب المنفعة العامة وتعلق الفكر والآمال بمستقبل الشعب الذي ينتمون اليه ؟ الرجل المنفرد لا قيمة له وما قيمة المرء الا بقيمة الهيئة الاجتماعية التي ينتسب اليها . وهل ينكر احد ان مبدأ الترقي والمدنية هو التعاون والاخلاص المتبادل بين الافراد ! ليست في الجمعية التي تخول الفرد ان يتجول بكل حرية و يظهر استعداده وقابليته اينما كان . اذا يجب على كل فرد ان يحب امته و يسعى لاعلائها واسعادها تلك الامة التي ضمته الى حجرها وضمنت له الحياة ثم ربته الى ان تيسر له استنارة مداركه واعماله . الرجل الذي يتبرأ من امته و يهمل امرها بعد ان اخذ غذاءه منها هو بلا شك ، غنية عنه وعن

امثاله ومن يقدر المنفعة العامة ويخدمها ولو كان ذلك يؤدي في بعض الاحيان الى ضرره الذاتي ، فهو مبجل في جميع الازمنة في نظر امته ونظر الانسانية .

حكمت اثينة ظلماً على سقراط بشرب السم . فبدلاً من ان يركب العار ويفر من قانون امته رضي بحكم القضاة وتجرع كأس المنون صابراً غير جازع فعلّم الامة وحسن العادات بمنفعتها الحسنة كما يجب ان يسير اقتدانا بعلي مقاصدنا . وما احسن ما كتب على نصب تذكار احد اولئك الابطال الذين داودوا بارواحهم في حرب ثرموبيل حباً بمنفعتها : ايها المار اذهب وخبر اسبارطة انا متنا في هذا المكان لاجل اعلاء شرعها وتأييد حريتها ! وهل كانت الاعراب اقل من ذلك وما السابق الذي دفع طارق بن زياد ان يحرق المراكب وينادي بعسكره : الموت او الظفر ؛ وما الذي ساق محمداً المنصور الوزير الاندلسي الشهير ان يجاهد على الطريق ويصد الغازين بنفسه اذا لم يكن حب الوظيفة وحب الامة والوطن .

الفضيلة التي تأمر الانسان ان يضحي نفسه دون مبادئه العالية هي من اولى الفضائل التي سطرها التاريخ على صفحاته . فلنجتهد ايها الاخوان ؛ لاكتسابها فان لنا باكتسابها الفوز العظيم

ترعة السويس وتجارة الشرق

عرف أن التجارة اول نشأتها لم تتجاوز البحر المتوسط بل انحصرت في سواحل فينيقية وبلاد الكلدان والعربية وغيرها من بلاد المشرق ايام توفرت لديها المعارف والعلوم وانتعشت فيها آثار الصنائع والفنون حتى صارت محط رحال التجارة بين المشارق والمغارب وخزينة الاموال ومورد الثروات والمكاسب يهرع اليها القاصدون من كل فج وصوب ليشاطروها الارباح العظيمة ويبتاعوا الصنائع العجيبة وتهافت عليها الغزاة تهافت الفراش على السراج ولكنهم ما كانوا ينتفعون بذلك بل كان تراثهم وبالاً عليهم في كل آن .

وبقيت سحائب المرابح والخيرات تنهل على الشرقيين فتتدفق عليهم سيول الثراء من سحاب الكد والجد الى ان نظر اليهم الزمان بعين ملؤها الحسد فألهم الافرنج ان يكتشفوا طريقاً جديداً الى الهند فآل الامر الى فاسكو دي غاما ذلك الرحالة العظيم الذي وجد طريقاً حول رأس الرجاء الصالح وحول بذلك المشروع